ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 05، العدد: 02 (2020) ص: 10 – 30

الباحث الأكاديمي العربي دحو وجهوده في خدمة الشعر الشعبي الجزائري ودراسة الأدب المغربي القديم

The Arab academic researcher Dahou and his efforts in serving Algerian popular poetry and studying ancient Moroccan literature

د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة

جامعة عنابة - الجزائر -

saifalislamsaad@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
04 سبتمبر 2019

تاريخ القبول:
28 فيفري 2020

الكلمات المفتاحية:
- ✓ دحو، الأكاديمي
- ✓ الأدب، المغربي
- ✓ القديم، جهوده
- ✓ خدمة

الملخص:

جمع الأديب والباحث الأكاديمي الأستاذ الدكتور العربي دحو عدة صفات جعلته يتبوأ مكانة متميزة في عالم الأدب، والثقافة، حيث إنه كان أحد أبرز الذين اهتموا بالثقافة الشعبية، وركزوا جهودهم على جمع الشعر الشعبي في مختلف المناطق، فهو أحد العناصر النشيطة، والفاعلة في خدمة الحركة الأدبية، والعلمية في منطقة باتنة، والجزائر قاطبة بكفاءة، وجهد، ومثابرة، وصدق ويمتد التاريخ الأكاديمي للبروفيسور العربي دحو إلى أكثر من نصف قرن، وفي خلال حياته العلمية، أثرى المكتبة العربية بعدد كبير من المؤلفات، ومن المساهمات الأدبية، والتربوية، والثقافية.

إنه واحد من الجامعيين الجزائريين الذين قدموا خدمات جليلة للأدب الجزائري، كما أنه من ألمع الشخصيات الأدبية، والثقافية الجزائرية منذ السبعينيات من القرن المنصرم، أسهم مساهمة فعالة في خدمة التراث الشعبي، ودراسة الأدب المغربي القديم، وتحقيق بعض الدواوين الشعرية المغربية، التي تكتسي أهمية بالغة، وقد تناوله الباحثون في مقالاتهم، وكتاباتهم على أنه أديب، أو أنه شاعر، وأكاديمي، وتهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على بعض مصنّفات هذا العلم البارز من أعلام الأدب، والدراسة، والتحقيق في الثقافة الجزائرية، وتتناول في شقها الأول: جهوده في خدمة الشعر الشعبي الجزائري، فتتحدث عن بعض مصنّفاته المتميزة في هذا الميدان، وتُقدم في الشق الثاني منها بعض الإضاءات على منجزاته العلمية في مجال دراسة الأدب المغربي القديم.

Article info

Received
04/09/2019

Accepted
28/02/2020

Keywords:
- ✓ *Dahou, academic*
- ✓ *literature, Moroccan*
- ✓ *ancient, his efforts*
- ✓ *service*

Abstract :

The writer and academic researcher Prof. Dr. Arabi Dahou gathered several qualities that made him occupy a distinguished place in the world of literature and culture, as he was one of the most prominent who interested in popular culture, and focused their efforts on collecting popular poetry in various regions, it is one of the active elements, and active in the service of literary movement The academic history of Professor Dahou extends to more than half a century, and during his scientific life, he enriched the Arab Library with a large number of literature, literary, educational and cultural contributions.

He is one of the Algerian academics who have rendered great services to Algerian literature. He is also one of the brightest literary and cultural figures in Algeria since the 1970s. He has contributed actively to the service of folklore, the study of ancient Moroccan literature, and the realization of some Moroccan poems, which are of great importance. This paper aims to shed light on some of the prominent works of this science of literature, study, and investigation of Algerian culture.

In its first part, it deals with its efforts in the service of Algerian folk poetry. It talks about some of its outstanding works in this field. In the second part, some of its highlights on its scientific achievements in the field of the study of ancient Moroccan literature are presented.

www.manaraa.com

أولاً. الباحث العربي دحو في الميزان

إننا نُلفي في كثير من الشهادات التي قدمها مجموعة من الأدباء، والمثقفين الجزائريين الذين عرفوا الأستاذ الدكتور العربي دحو أصداء لجهوده، ومنجزاته في المشهد الثقافي الجزائري ، حيث يقول عنه الناقد المعروف الدكتور عبد الملك مرتاض: "العربي دحو وجه من وجوه الحركة الثقافية، والأدبية المعاصرة في الجزائر، فقد عرفناه متعدد النشاط الثقافي، والسياسي، والاجتماعي، فبينما هو شاعر يقرض الشعر، هو في الوقت ذاته جامعي يلقي المحاضرات على طلاّب جامعة باتنة، ويبحث في الأدب الجزائري قديمه، وحديثه، وفصيحه، وشعبيه، وبينما هو عضو قيادي سابق في اتحاد الكتاب الجزائريين، هو عضو سابق في البرلمان الجزائري على عهد الحزب الواحد. تجمعني بالعربي دحو علاقة ثقافية، وعلمية خاصة، تبلون حين كنا في قيادة اتحاد الكتّاب الجزائريين أيام الحزب الواحد، فقد كنا نقضي أياماً معاً في أنشطة ثقافية بالشرق، والغرب، والوسط، كان الاتحاد يقيمها، كما أتيح لنا السفر معاً إلى خارج الوطن، بحكم ذلك..."(01).

وقد كشف الدكتور عبد الملك مرتاض لدى ترجمته للأديب العربي دحو عن بعض الرؤى النقدية، والفكرية التي تميز بها، حيث يشير إلى معرفته بأن العربي دحو كان يرى أن "الناقد لا يكون ناقداً متألقاً خريتاً في جنس أدبي ما، إلا إذا كان أديباً فاعلاً في ذلك الجنس، فناقد الرواية لا يكون ناقداً متمكناً من إجراءاته ما لم يمرّ بالتجربة في الكتابة الروائية، ولا يقال إلا نحو ذلك في ناقد الشعر، وهلم جراً..." (02).

وقد جاء في موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين التي أعدها الأديب والباحث الأستاذ رابح خدوسي: "دحو العربي من مواليد: 12-09-1942م، بمروانة (باتنة)، أستاذ جامعي، حاصل على دكتوراه دولة، من مؤلفاته: أهازيج جزائري عاشق (شعر 1988م)، وذاكرة الظل الممتدة (شعر1988م)، وبعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية (دراسة 1986م)، ودراسات وبحوث في الأدب الجزائري (1991م)، والشعر المغربي (1994م)، وديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي (1994م)، عضو المجلس الوطني لاتحاد الكتاب الجزائريين عام: 1998م"(03).

ثانياً. أضواء على جهوده في خدمة الشعر الشعبي الجزائري

لقد أصدر الدكتور العربي مجموعة من الكتب، والمؤلفات العلمية، كما كتب عدداً كبيراً من الأبحاث الأكاديمية، نُشرت في مختلف المنابر الأكاديمية الجزائرية، والعربية، وشارك في عدة ملتقيات أدبية، وعلمية، وقد كان عضواً في عدد من الهيئات العلمية المرموقة، والحق أن آثار الباحث الأكاديمي العربي دحو هي أرحب، وأوسع من أن تحيط بها قراءة، أو بحث، مهما بُذل فيه من جهد، وأود في هذه الورقة أن أقدم إلى القارئ الكريم، وبشيء من الإيجاز، في هذا القسم الأول من البحث، ما تيسر لي من الاطلاع على مؤلفاته في ميدان الأدب الشعبي، أو الثقافة الشعبية، كما يُفضل بعض الباحثين تسميتها، وذلك على أساس أن الثقافة (04)، أوسع دلالة، وأشمل من مصطلحي الشعر، أو الأدب، وبدءاً أقول إن هناك من يُبرر دراسة الأدب الشعبي لجُملة من الأسباب الموضوعية، ومن بين هؤلاء العلاّمة المغربي عباس الجراري، الذي يُحدد أسباب تركيز الدراسة على الأدب الشعبي بـ :

1- إن الأدب الشعبي صورة للشخصية الوطنية، مهما كانت باهتة فهي أكثر وضوحاً من الصورة التي يعيشها الأدب المدرسي المثقف.

www.manaraa.com

2- إن دراسته تعزيز لإقليمية الأدب، وتقرير لمذهبه الذي نؤيد الداعين له منهاجاً للكشف عن أدب الأقاليم العربية المختلفة، وسبيل الأمة العربية إلى لم شتات أدبها المبعثر المجهول.

3- إن الأدب الشعبي مكمل للأدب المدرسي، وأن من شأن دراسته أن تُساعد على الربط بين الأدبين، واجتياز الهوة الكبيرة التي تفصل بينهما (05).

1. لمحة عامة عن الأدب الشعبي ونشأته

تُعبر الأمم عن خلجاتها النفسية من خلال أدبها الشعبي، وثقافتها الشعبية، حيث تعكس تلك الثقافة اهتماماتها الروحية، ومداركها الوجدانية العقلية، بأسلوب غير خاضع لقانون الإيقاع المتناسق، إلا ما جاء عفو الخاطر، ولا يُغالي في استعمال الصور، والأخيلة، وهو (الأدب والنثر الشعبي) بمرونته، وسهولته، يسمح بالتفاهم، والتعبير عن حقيقة الأشياء، والإبانة عن الأغراض النفسية، والخواطر الفكرية، بلا كلفة، و لا صنعة، إلا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه، وإيثار ما يألفه السمح، وما ينسجم مع الطبع، وهو بذلك يُعبر عن مظاهر الوعي، والشعور الجمعي الذي تصدر عنه الأفعال، والتعابير الواعية، ذات المغزى، والجذور النفسية التي ينبع منها، وهي في جلها، ومجملها تشكل الاهتمامات الروحية التي دفعها إلى الظهور، ومن ثم فهو يتلون، ويصطبغ بطابع أدبي شعبي، يتسم بثراء رموزه، وغنى معانيه، ودلالاته، التي تختزن فيها اهتمامات الفرد الشعبي، وتكمن فيها هواجسه، وتجاربه مع نفسه من جانب، ومع الطبيعة من جهة أخرى، حتى لكأن الحياة الشعبية تحدث من خلال الكلمات المعبرة التي تلقى هوى بين أفراد الشعب، الذي يُلفي فيها روحه، وتجاربه، ومشكلاته، وما يعتمل في نفوسه، ولذلك فإن هذا الشكل الأدبي الشعبي يعكس ما يمر في الأذهان من الخواطر، والأخيلة، والمشاعر، والأحلام، ومن ثم فهو يُحقق المتعة المرتبطة بمصيره، وقضاياه الاجتماعية الكبرى التي يؤثر فيها، ويُثريها بعناصره الفنية، والجمالية ،وبذلك يغدو أداة مطواعة في صقل الشخصية البشرية، وتكوينها تكويناً أدبياً يتسم بالإمتاع، والمؤانسة، والفكاهة، فصفة الشعبية تميز هذا الشكل من الأدب الشعبي، وهي ذات منشإ فردي، لأن هذا الفرد يعيش حياة شعبية محضة، وخالصة، بيد أن ما يميزها هو ذلك النشاط الإبداعي، الذي يُحلق بجناحي الفكر، مُتخطياً الزمان، والمكان، ويتمثل هذا الإنتاج في النصوص المتوارثة عبر الأجيال، والمنتقلة مع تقاليد الشعب الذي فسرها، وأخضعها لإرادته، وأداء اهتماماته الروحية، ولذلك فلا نعجب عندما نجد أن ألفاظ هذا الأدب جاءت منحوتة من بيئته الخاصة جداً، ومن الفعل الخاص، وقد يُترجم إلى اللغة الفصحى، وهي أم للعامية التي لم تسر على القانون النحوي، والصرفي، ولكن تظل دائماً للعامية جملة من الصور الفنية البديعة الخاصة بها، والمميزة لنظامها، ففيها مجموعة من الصيغ المتشكلة بحرس حدس وجدان العامة، وسلوكها، وكثيراً ما تكون عويصة الترجمة (06).

إن لكل أمة أدب يُسمى الأدب الشعبي، وهو غير الأدب المتميز بصفته الفنية كما يرى الباحث محمد التونجي، فأفكاره نابعة من آماله، وآلامه، فهو أدب السُمار، والأحاديث، والنوادر، والطرائف، والخرافات، والأساطير، التي يقطع الناس فيها أوقات فراغهم، ويتبادلونها في لياليهم، وجلساتهم، إذ ينبع هذا الأدب من ظروف الأمة الخاصة، والناس هم الذين يسجون أخبارهم قصصاً، ويحوكونها، ويحبكونها على شكل روايات، وأساطير، ويُلبسونها أشخاصاً من واقعهم، أو من مأثوراتهم، أو من خيالهم، وقد انطلق الأدب الشعبي عند العرب على شكل أسمار، وأحاديث، ونوادر يحكونها في الليالي المقمرة، ويدعى الذين برووها السُمار، أو يتفكهون بها في جلسات أنسهم، وطربهم،

www.manaraa.com

شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم، وقد أسهم في انتشار القصص، وتحليتها بالخيال مختلف الفتوحات، والحروب التي كانوا يقومون بها، حيث ساعدت على نشأة القصص الشعبي، إذ برزت مجموعة من القصص الحماسية التي تروي بطولات رجال مشهورين، كما أفاضوا بالإعجاب بهم، فأضافوا عليها(القصص)، مبالغات، وخيالات، كما أن حياة السمر، والدعة، والمجون، والانغماس بالملذات عملت على نشأة القصص الغرامية (07).

2. قضايا فنية في الشعر الشعبي

ويُنبه الناقد والباحث الجزائري المعروف الدكتور عبد الملك مرتاض إلى الفروق الفنية بين الشعر العامي، والشعر الشعبي، فيقول: "كثيراً ما يقع الخلط بين مفهومين اثنين يتمحضان للشعر الشعبي، ذلك بأن بعض الناس ربما جعل الشعر العامي مُرادفاً أو مُعادلاً للشعر الشعبي، أو النبطي، والحال أنهما أمران، في نظرنا نحن على الأقل، مختلفان. ذلك بأن الشعر الشعبي، هو ما ينتسب إلى الخيال الشعبي العظيم، فهو يُقارن بالملاحم، والحكايات، والخرافات الجميلة التي تتخيل الأشياء، ثم تخالها، ولقد نُسب هذا الشعر إلى الشعب، لأنه يُجسد خياله، ولأنه يُمثل قيمه العظيمة أيضاً. وربما نُسب إلى الشعب، لأن بعض الأشعار لا يُعرف قائلها، فهي مجهولة المؤلف، مثلها مثل الألغاز، والأمثال، والحكايات، فنُسبت إلى خيال الشعب، أي إلى الذاكرة الجماعية، غير أن الأشعار الشعبية، في الحقيقة، في معظمها معروف أصحابها الذين قرضوها، فهي ليست مجهولة الصاحب كالألغاز، والأمثال، والحكايات، فلماذا أُطلق عليها مصطلح (الشعر الشعبي)؟ أولا يكون من هذه الوجهة، إطلاق مصطلح (الشعر النبطي) أولى من إطلاق الشعر الشعبي، بل إن الدكتور غسان الحسن يرى أنهما مفهومان مختلفان، ولكن كأن الشعر لديه هو كل شعر كُتب بالعامية، ولعله أول من تناول هذه المسألة اللطيفة بالبحث المفصل المدقق، ولكنه على الرغم من ذلك لم يخرج بتحديد فرق بيّن بين مفهومي النبطي، والشعبي. ويُفهم من كلامه أن النبطي من الشعر هو أقرب ما يكون من الفصحى، وهو كذلك، ولكننا نعتقد أن الشعر الشعبي في بلاد المعرب العربي هو أقرب ما يكون إلى الفُصحى من حيث لغته، وأقرب ما يكون إلى القصيدة العمودية من حيث شكله، وإيقاعه..."(08). ويُرجع الباحث الموسوعي محمد التونجي مصادر الأدب الشعبي إلى فروع شتى عديدة، ومتنوعة، وأهمها:

1. الحياة الجاهلية وأيام العرب، ومختلف الحروب التي خاضوا غمارها، وما جرى بها من مساجلات، ومغامرات، وأحداث متداخلة.
2. الحياة في عصري صدر الإسلام، والعصر الأموي، وما راج فيها، وعم من حُروب، وفتوحات، أو مجون، وانغماس بالملذات، إذ ظهرت أقاصيص الحُب كقصص المجون، بل قصص المجانين الذين وقعوا في الهوى.
3. الحياة إبان العصر العباسي، وما انتشر فيها من حضارة، وترجمات فارسية، ووضع، وتأليف.

وعندما توقفت الفتوح، وانتشر بين الخلفاء، والأمراء حياة الدعة، والخلاعة، عكف الأدباء على تسجيل تلك الحكايات الشعبية لروايتها، وتسلية الناس بها، ولعل أبرز، وأشهر القصص الشعبية المأثورة، التي ألفها العرب: (قصة عنترة)، و(ذات الهمة)، و(سيف بن ذي يزن)، و(حمزة البهلوان). وبالنسبة إلى القصص المترجمة، والتي أضافوا إليها، فأشهرها على الإطلاق (قصة ألف ليلة وليلة). إلى جانب قصص قصيرة رويت كما هي، أو أُقحمت داخل ألف ليلة، وليلة، ومن بين المترجمات التي لقيت أصداء واسعة جداً، قصص (كليلة ودمنة) (09). كما يُلاحظ أن الأدب الشعبي تميز بأسلوب يغلب عليه السجع غير المترابط، كما اتسم بتفكك الأفكار التي كثيراً ما ينقصها

www.manaraa.com

حسن الانسجام، أو حسن ربط المقدمات بالخاتمات، والبدايات بالنهايات، إلى جانب الخيال المجنح الذي يُحلق بالمستمعين نحو آفاق بعيدة جداً، ويحرص على جذبهم، بيد أنه يظل غير متماسك، وتبدو عليه علامات المبالغة الواضحة، والإفاضة، والتوسع، والاستطراد، غير أن هذا الأدب غدا، فيما بعد، نواة يستلهم منها الأدباء أدبهم، فأعادوا صياغته، وتشكيله، وحرصوا على تطويره، وقد ألفينا (محمود تيمور) في كتابه الموسوم بـ (دراسات في القصة والمسرح)، يذهب إلى أن مصطلح (الأدب الشعبي) قد تحوَّل في مدلولاته المعاصرة، والحديثة إلى ما يُدعى بأدب التفاهة، والابتذال، أو الأدب الرخيص، إلا أن مثل هذا الإطلاق لا يجوز – كما يرى الباحث محمد التونجي – فالشعب لا يأبى الأدب الرفيع، والأدب الرخيص يُمثِّل مُستوى كتابه، لا مستوى الشعب، وما روائع الأدب العالمي إلا أساطير الشعوب، وأقاصيصها، وسر نجاح الأدباء العباقرة في استجابتهم للشعب، والشعب يستهويه أن يرى صورته في الأدب الفني، والإنسانية في الموضوع الأدبي تجعله شعبياً، وأخيراً الشعب موضوع الأدب، والأدب مرآة الشعب(10).

2. الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1962–1955م)

صدر هذا الكتاب عن منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، دون ذكر لتاريخ الطبع، وقد نبه الدكتور العربي دحو لدى تقديمه لهذا الكتاب إلى الأسباب، والدوافع التي دعته إلى تركيز الاهتمام على هذا الموضوع، والتي أرجعها إلى دوافع ذاتية، وعاطفية، ودوافع معرفية تتعلق بسد فراغ معرفي، حيث يقول: "يعود اهتمامي بهذا الموضوع إلى مسقط رأسي من جهة، وإلى معايشتي للثورة التحريرية من جهة ثانية، وإلى إكباري لهذه الثورة المظفرة من جهة ثالثة، وإلى حاجة الجامعة الجزائرية إلى متخصصين في هذا الميدان من جهة رابعة، وإلى خلو المكتبة الجزائرية باللغة العربية من هذه الدراسات حتى الآن، والتي تعتبر حديثة العهد في العالم، وإلى اقتناعي أولاً، وأخيراً بوجود أشياء كثيرة في النص الشعبي، لا نجدها في النص المدرسي، ومن هنا اقتنعت باختيار هذا الموضوع الذي أتعبني كثيراً عندما دخلت ميدان التطبيق لأسباب منها ما يتصل بإمكانياتي المادية، ومنها ما يتصل بنفسية الشعراء، والرواة الذين اتصلت بهم، والذين كانوا يمدونني بالنزر القليل كل مرة، بالرغم من كل الأساليب التي استخدمتها معهم، وخاصة أولئك الذين اعتلوا خشبات المسرح، وظهروا على شاشة التلفزيون، وتعودوا أخذ المقابل عما يقدمونه، إذ لا يعرفون أهمية البحث العلمي، ولا غايته، وفوائده، ومادامت الوسائل المادية التي استخدمتها في الجمع، والبحث معاً كلها كانت من إمكانياتي الشخصية، ومن هنا كان التأثير البالغ علي إذ لولا حبي للعلم، ولولا أستاذي الفاضل، ومساعدته مع أسرته الكريمة ما قطعت المسافة إلى هدفي الذي سعيت إليه أول الأمر، ولما بلغت ببحثي هذه المرحلة"(11).

يتضح من خلال هذا التقديم مدى ما كابده الدكتور العربي دحو من جهود مضنية في سبيل تأليف هذا الكتاب، فقد بذل صاحبه كثيراً من الجهد، فهذا الكتابي هو ثمرة مرحلة مهمة من حياته مليئة بعمل دؤوب لا يعتري صاحبه سأم، أو كلل، لأن الحافز عليها الطموح العارم، والجامح، والرغبة الأكيدة في تحقيق الذات بهدفها الأسمى، وخدمة الوطن، والتأريخ بدقة لثورة التحرير المظفرة، التي يُكن لها من الحبّ، والإخلاص، والوفاء، ما لا يعلمه، ولا يجزي به إلا الله.

www.manaraa.com

يستهل الباحث الجاد الدكتور العربي دحو كتابه هذا، في بابه الأول بالحديث عن منطقة مروانة، وسكانها، وشعبها قبل اندلاع ثورة التحرير الجزائرية، وقد نبه منذ البداية إلى أنها ليست قديمة العهد في الحقيقة، وقد عُرفت بهذا الاسم الذي اختلف فيه، ولكن الاعتقاد السائد أن رجلاً اقترف جريمة قتل يدعى(مروان)، ثم اختفى في الوادي الذي سُمي بعدها باسمه، وبعدها نُقل إلى (مروانة)، وهناك من يشير إلى أن الكلمة مأخوذة من كلمتي (مروا)، ومن (هنا)، والمقصود أن جماعة عبرت المكان، فضل أفرادها طريقهم، وبعد عبورهم الوادي، واجتيازه، وجدوا أثر مرور أصحابهم، فقالوا (مروا)، ومن هنا، ثم تم التحويل من أجل الاقتضاب، والاختصار، فقالوا (مروان)، أو (مروانة)(12).

وقد قدم الدكتور العربي دحو لمحة عن السكان في العهد الفرنسي، حيث نبه إلى أن إخضاع منطقة (مروانة) لم يكن دفعة واحدة، حيث لقي الاحتلال الفرنسي مقاومة شديدة سنة: 1858م، وقد تم احتلال المنطقة كاملة سنة: 1895م، ومن جملة ما ترتب عن الاحتلال نزع الأراضي من أصحابها الحقيقيين، ولاسيما منهم أولاد فاطمة، وحيدوسة، حيث تم تقسيم الأملاك على المعمرين، وبالنسبة إلى لغة السكان، وعلى الرغم من إنشاء المدارس الفرنسية بالمنطقة، غير أن إقبال السكان كان ضعيفاً جداً، لأن أغلاب الآباء كانوا يعتقدون أن التعلم في المدارس الفرنسية حرام، وقد كان تعلم العربية متوفراً في الكتاب، حيث كان تعليم القرآن الكريم، وقد كانت تتوفر مدرسة واحدة أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمدينة مروانة، ولغة السكان المعروفة هناك هي (اللهجة العامية)، أو (الدارجة) على المستوى العام، وعلى مستوى القبائل، فتوجد لديهم (لهجات الشاوية)، والتي هي متداولة بينهم (13).

وقد تطرق الدكتور العربي دحو في هذا القسم من الكتاب إلى بعض الأماكن التاريخية التي وردت في النصوص الشعرية التي قام بجمعها: الجبال، والسجون، والشوارع، والمدن، والقرى والعواصم، كما قدم لمحة عن الشعر الشعبي قبل ثورة التحرير الجزائرية المظفرة، وقدم عدة ملاحظات مهمة في هذا الشأن، لعل أبرزها تأكيده على أن المنطقة تمتاز في مختلف فتراتها، ومراحلها بوجود نصوص شعرية تعبر عن أفكار أصحابها، وتسجل قضاياهم، وتنقل أحاسيسهم، وبالنسبة إلى موضوعات النصوص السابقة لثورة التحرير، فالدكتور العربي دحو لم يجد فروقاً كبيرة بين مستوى النص قبل الثورة التحريرية، وخلالها، سواء ما يخص اللغة، أو طول النفس، أو طريقة الإنشاد، أو الألحان التي كانت تعطى لها، حيث اتسمت لغة النص بوجود اللهجة العامية، واللهجة الشاوية(14).

وقد انقسمت أنواع النصوص في هذه الفترة إلى نصوص دينية، ونصوص تُجسد الأفراح، والمناسبات العامة، مثل: الزواج، والختان، وبعض الحرف، إضافة إلى أغاني الأطفال، وبعض النصوص التي تُبرز ظاهرة الهجرة والحنين.

وقد سلط الدكتور العربي دحو الضوء في الباب الثاني من الكتاب على اندلاع الثورة التحريرية المظفرة، ومواكبة الشعر لأحداثها، حيث كانت قرية (سريانة) هي المنطلق الأول لاندلاع الثورة، حيث تعرضت ثكنة بها إلى هجوم ،وقد جسدت النصوص الشعرية بعض الأحداث، والأماكن التي شهدت الأحداث الأولى للثورة، وقد رمى أصحاب النصوص إلى جملة من الأبعاد، من بينها: البعد السياسي، والبعد الاجتماعي، والبعد العسكري، والبعد الاقتصادي، والبعد التاريخي، وقد خلص الدكتور العربي دحو في ختام دراسته لهذه الأبعاد، وعرضه لها إلى أنه لا يمكن لأحد أن يدعي بأن "هذه الأبعاد المستنجة من بعض النصوص قيلت في فترة الثورة التحريرية بالمنطقة

www.manaraa.com

(مروانة)، هي وحدها المحددة لوظيفة النص الشعبي بالنسبة لموضوعاته، أو لمعانيه التي نجدها فيه، بل إن هذه الأبعاد ما هي إلا مفاتيح عادية تمكن الراغب في الدخول إلى الجوانب الأخرى... أقول (العربي دحو) أنها – الأبعاد – قد حددت وظيفة النص الشعبي في هذه الفترة، بالنسبة لهذه المنطقة، وهي وظيفة في مجملها أدت خدمات جليلة للثورة، وأصحابها، ولعامة الناس في أوانها، وزمانها...، كما أنها قدمت علاجاً واضحاً، وناجحاً للإنسان إبان الحرب، بصورة عامة، لأنها جددت العزم لكل من خارت قواه، ووجهت كل من ضل دربه، وأهبت مشاعر كل من عقد العزم على الاحتراق بالنار، وأججت العواطف لدى كل من تعود الخمول، والركود"(15).

توقف الباحث الدكتور العربي دحو في الباب الثالث، والأخير من الكتاب مع الخصائص الفنية العامة للشعر الشعبي في دائرة مروانة، حيث لاحظ أن الألفاظ، والكلمات التي استخدمها الشعراء الشعبيون في النصوص يُمكن إعادتها إلى العربية الفصحى بنسبة عالية جداً، وهناك إخلال بقواعد الكتابة، والعبارات كانت عادية وبسيطة جداً، ولا يوجد فيها أي تعقيد، كما درس الدكتور العربي دحو الخيال، والعاطفة، والوزن، وقد نبه الدكتور العربي دحو بالنسبة إلى الخيال، والعاطفة، والوزن إلى أن الخيال "كان مُصوراً للواقع الخصب بالأحداث التي فرضتها الظروف الجديدة، فكان بذلك متصلاً بالحقيقة ناقلاً لها، أكثر مما قدم صوراً فنية بمعناها القديم، أو الحديث، أي أن سمة الخيال الشعبي المعروف بالصفاء هي نفسها التي نجدها تميز نصوص فترة الحرب التحريرية، مع اختفاء الجنوح، أو الغلو المعروف عنه في القصص الشعبي في هذه النصوص....، ونفس الشيء يمكن قوله عن العاطفة، أعني أنها مع نبلها تمتاز بانبعاثها من أعماقهم بصدق وإخلاص، وإعجاب بالثورة، والثوار، مما جعلها عبارة عن لهيب مشتعل، وخاصة عندما تؤدى النصوص بألحانها، حتى ولو كانت موضوعاتها نقدية، فإن صدقها لا نعدمه في أي نص كان، ولعل خيالهم الصافي من جهته يؤكد صدق عاطفتهم، أو عواطفهم، لأنهم لا يتكلفون فيما يقولون...، أما الوزن فإن تأثير اللهجات الشاوية على لغة السكان العامية جعلت ضبطه غير ممكن....، والوزن الذي نجده قريباً من نصوصهم هو بحر المتدارك في الغالب، وفي بعض الأحيان بحر الرجز وإن كان قليلاً جداً"(16).

ومما يجري مجرى هذا الكتاب، تأليف آخر للدكتور العربي دحو، يبين جهوده في خدمة الشعر الشعبي، عنوانه: "بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية – دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية–".

3. بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية

طُبع هذا الكتاب ضمن منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، دون ذكر لتاريخ نشره، ويبدو أنه قد نُشر خلال سنوات الثمانينيات من القرن المنصرم، ولقد افتتح الدكتور العربي دحو كتابه هذا (بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية – دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية–)، بالتساؤل: لماذا نماذج المقاومة في الأوراس أثناء الثورة التحريرية؟ هل هذه وحدها يُمكن أن يعتمد عليها كموضوع يعطينا دراسة كهذه؟ أم أن أقرب الزمان الذي برزت فيه هذه النماذج هي التي دفعتنا إلى هذا الغرض؟ أم المناسبة هي التي أجبرتنا على اختيار الموضوع؟

www.manaraa.com

يُنبه الدكتور العربي دحو بعض إثارته لهذه الأسئلة إلى أن كثيراً من الباحثين اعتادوا ذكر الدوافع التي أجبرتهم، أو وجهتهم لتناول الموضوع الذي يبحثونه، وذاك أمر طبيعي في الحقيقية، بيد أنه لا يسير في الفلك نفسه، حيث نلفيه يقول في المقدمة: "لأني في الواقع أخاف أن لا أضبط كل الدوافع والأسباب التي جعلتني أبحث الموضوع، لأن صلتي به قديمة، وتناولته من زوايا متعددة، وفي كل مرة أجد موضوعاً جديداً يدفعني إلى الكتابة، ومن هذه الموضوعات هذا العنوان الذي اخترته لهذا البحث، فضلاً عن دراسة وثائقية تنتظر فارسها مُستقبلاً، وعساي أكون صاحبها مرة أخرى، وهي تسجيل رواية النماذج الحية من أبطال ثورة نوفمبر الخالدة في كتاب، أو في دراسة تكون مصدراً أساسياً لكل الباحثين، وخاصة أبطال الفاتح من نوفمبر الذي التقوا في (أولاد موسى)، وفي أماكن أخرى، وما زالوا على قيد الحياة.

فضلاً عن المهمة الوطنية، والإنسانية، والواجب الأخلاقي، والتاريخي التي تدعونا مجتمعة إلى الالتفات لهذه المنطقة المجاهدة، وأهاليها الأبطال، وتسجيل بطولاتهم حتى تكون قدوة تحتذى، وحفظاً للأحداث التي سجلت هذه البطولات، وقدمتها لنا النصوص في شكل وثائق تاريخية حية، ستستكمل ملامحها – التاريخية خاصة – عندما تحل الرموز الواردة فيها، وتفسر الإشارة التي احتوتها، وتحدد أماكن، وأسماء الأشخاص التي وردت فيها تحديداً علمياً دقيقاً...

ومهما يكن فهذه الدراسة تظل حتى الآن وحيدة في ميدانها بالنسبة للمنطقة – حسب معلوماتنا الحالية – ولذلك سيكون لها فضل السبق على الأقل في توجيه الأقلام إلى هذا الموضوع الخصب الثري، وستكون في يوم من الأيام من أهم المراجع – إذا لم تكن من أهم المصادر – التي يعتمد عليها في دراسة الثورة التحريرية بهذه المنطقة مع شقيقاتها الأخريات، وحسبي هذا من جهدي أولاً وأخيراً، ثم أنها أيضاً ستظل حافزاً قوياً جداً لتوجيه الدراسات إلى الموضوع، والمنطقة..."(17).

تحدث الدكتور العربي دحو في المدخل الذي وسمه بـ (مع التاريخ)، عن عدة قضايا تتصل بتحديد جملة من المصطلحات، ورصد أبعادها المعرفية مثل: الجهاد، والمقاومة، والثورة، ونبه إلى بعض الرؤى، والأفكار المتصلة بشعر الثورة الشعبي تاريخياً، كما أشار إلى قضية النموذج في هذه النصوص الشعبية، وأشار كذلك إلى جملة من الإشكاليات المعرفية، من بينها بيئة هذه النصوص، وطرائق تدولها.

فعلى سبيل المثال نلفيه يُنبه إلى مصطلح (أدب الحرب)، فيقول في هذا الشأن: "...معنى هذا أن هذا المصطلح (أدب الحرب) إن كان حديث العهد في البيئة الجزائرية، وربما في البيئة العربية عموماً لأنه طمس بعد الجاهلية تماماً، حيث أحل محل عبارة (الحرب) عبارة (الجهاد)، فإنه إلى جانب عدم تماشيه مع نفسية الإنسان الجزائري قطعاً، فهو لا يُعطي الشمولية الكافية التي تعطي، أو تُحدد أبعاد الثورة الجزائرية، طالما أن المرتكزات الثلاثة المتقدمة لا تشير إلى التغيرات الفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية التي تحدثها الثورة، لأن الحرب في أقرب معانيها المستقاة من العناصر الثلاثة السابقة (البشر، السلاح، القتال) لا تعطي غير الخراب، والدمار، بينما الجهاد عكس ذلك تماماً، فهو محكوم قبل كل شيء بقوانين، وشروط، وإن كان عملياً يصير إلى صورة الحرب في مرحلته الأخيرة..."(18).

وقد جعل الفصل الأول للحديث عن هذه النماذج، وفي الفصل الثاني تحدث عن بعض أقطاب أول نوفمبر1954م، مثل الحاج لخضر، والشهيد ابن بولعيد، وقرين بلقاسم، والفصل الأخير أشار إلى مكانة هذه النصوص بين النصوص العربية، كما قدم عدة ملاحظات عن

www.manaraa.com

شتى الجوانب الفنية في هذه النصوص، مثل: اللغة، والصورة التي رأى لدى رصدها أن الشعراء قد ركزوا على التراث الإسلامي، وعلى العادات والتقاليد العربية الإسلامية، كما نبه إلى بعض القضايا المتصلة بالوزن، والجوانب الموسيقية.

4. ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)

صدر هذا الديوان في طبعته الثانية، عن منشورات مؤسسة بونة للبحوث والدراسات بعنابة، سنة: 1433هـ/ 2012م، بالتعاون مع وزارة المجاهدين الجزائرية بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال، وقد جاء في مستهل غلافه: جمع، وتوثيق، وتصنيف، وشرح، وتعليق، وترجمة إلى العربية، وتقديم: الدكتور العربي دحو، وقد نبه المؤلف إلى أن هذا الكتاب في طبعته الأولى لم ينل التوزيع الكافي على مؤسسات وزارة الثقافة التي تكفلت بتمويله، بيد أنه كان له حضوره المحترم في الوسط الجامعي المختص، والثقافي العام، وحتى الفني، حيث اعتمدته دراسات في مذكرات التخرج، في الماجستير، والدكتوراه، كما تمت الإفادة من مضامينه في الدراسات، والمحاضرات، سواء منها التدريسية العادية، أو المقدمة في الندوات، والملتقيات، والاحتفاء بالمناسبات الوطنية، كما استفادت من مادته وسائل الإعلام، ولاسيما منها المرئية، والمسموعة، كما نبه الدكتور العربي دحو في مقدمته إلى بعض الأصداء التي لقيتها الطبعة الأولى من هذا الكتاب القيم، فنلفيه، يقول: "في الطبعة الأولى لهذا الجهد كنت قد نوهت إلى أني أسعد كثيرا بأي شيء يرد عني بخصوصه. وبالرغم من أن العمل لم يسوق ولم ينل التوزيع الكافي على مؤسسات وزارة الثقافة التي تكفلت بتمويله، فقد كان للعمل حضور محترم جدا في الوسط المختص (الجامعي) والثقافي العام، وحتى الفني. بحيث اعتمدته دراسات في مذكرات التخرج، والماجستير والدكتوراه. كما استعملت مادته في الدراسات والمحاضرات سواء منها التدريسية العادية أو المقدمة في الندوات والملتقيات والاحتفاء بالمناسبات الوطنية.

كما استفادت منها (المادة) وسائل الإعلام، وبخاصة المرئية منها، والمسموعة، إذ تعود إليها بتقديم منها نماذج عن الموضوعات التي تتناولها، وتتواصل معي في حوارات بشأنها من حين لحين ومنها على سبيل الذكر حصة "ألوان من بلادي" التي اعتمد جل عملها على نصوص المدونة هذه والتي فازت بها في مسابقة التلفزيونات العربية قبل مدة، إلى جانب اعتماد مغنين عليها في أداء نصوص منها إلى غير ذلك مما أعتقد أن المتلقي يعرف ذلك ولا شك. وفي موقعي في الشبكة العنكبوتية وصفحة الفايسبوك بعض تلك الردود، وهذه غاية ما يتمنى أي باحث أو كاتب لكن هناك متطفلا على الموضوع لا يستحق ذكر اسمه لبعده بعد السماء عن كل ما هو علمي أكاديمي أو ثقافي فني قد أخذ بعض النصوص ونشرها في وريقات في عمل له سماها (موسوعة) فشوهها أيما تشويه إذ أسقط عناوين كل النصوص التي أثبتها وهي عبارة عن رباعيات، وأدمجها في نص واحد على أساس انها قصيدة واحدة ما شوه المعنى، وافقدها بنيتها الفنية والشكلية ويبدو انه تعمد ذلك حتى لا يحيل على المصدر الذي أخذ منه، وهو ما لم يفعله فعلا.

ويطول الكلام الذي يمكن أن يقال عنه، وسأثبته لاحقا، وبالتفصيل عندما تصدر الطبعة هذه في موضعي بالشبكة العنكبوتية وبالشواهد التي شوهها.

وحتى لا استطرد في متابعة ما قيل عن المدونة، فإني ارتأيت أن أخالف المعهود في مقدمات طبع الكتب فأورد جملا للأكاديميين تعنيها. فهي أبلغ تعبير وأفيد أيضا للمتلقي بعامة والمختص بخاصة... ومن الأقوال التي تعني الموضوع قول الدكتور (لخضر عيكوس): "هذه

www.manaraa.com

النصوص الشعرية ... [تعد] مصدرا هاما من مصادر الثورة لأنها من أدق الوثائق التاريخية التي لم يصبها الزيف ولم يتسرب إليها التملق، ... ومن ثم ستظل هذه النصوص محامي صادقا مخلصا دافعا لكل دعوى تحاول تزوير الحقيقة، وتسعى لطمس جهود تضحيات أناس... "

أما الأستاذ الشاعر (شراف شناف) في بحث له مطول عن المدونة فنأخذ منه الآتي: (تنطلق الثورة من رحم الشاعر الشعبي لتعانق كل ذرة من ذرات هذا التراب الزكي، العابق بدماء الشهداء، الذين ضحوا بالنفس، والنفيس لأجل أن يعيش أبناء هذا الوطن سالمين، غانمين معافين... تنبثق الثورة من رحم الظلم، فتمور، وتهيج لتنسف غبار الركود المنسدل على الذاكرة الشعبية.

إن صرفنا النظر إلى الشعر الشعبي، وشبكة العلاقات التي خلقها، يُمكن أن نهدم البؤرة الأولى، ونزيحها من مكانها، ليتجلى الشعر الشعبي بؤرة مركزية، إذ يُشكل قطعة المغناطيس التي تستقطب كل ما هو ممكن، عن طريق الحساسية المفرطة التي يخلقها الشعر، أو جو الشعر بالأحرى، حين يرقص على الأوتار النفسية للإنسان الثوري، ويُحرك الكوامن الداخلية فيه.

ومن جملة ما يراه الدكتور (أمحمد عزوي) بخصوص المدونة نورد من بحثه المطول كذلك قوله: "ويمكن أن نعتبر هذا الجانب الفكري الذي اضطلع به الأستاذ، مهمة وطنية كلف نفسه بنفسه، القيام بها، دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا.

وذلك بإصداره مجموعة قيمة من الدراسات تتعلق بالشعر الشعبي إبان الثورة التحريرية الكبرى (62-54) وبذلك يكون قد حقق نتيجتين هامتين:

الأولى: أنه ساهم بشكل فعال في إثراء الدراسات الشعبية بصفة عامة، والأدب الشعبي الجزائري بصفة خاصة. وهو مجال قلَّ من يتجه إليه، على الرغم من أهميته المتمثلة في ربط الجذور بالفروع وبهذا يكون وضع لبنه في أساس الدراسات التنظيرية للأدب الشعبي الجزائري.

أما الثانية: فبعمله هذا يكون قد سجل تاريخا بأكمله، لفترة هي من أكثر الفترات تعقيدا، ولازال الكثير من الشباب لا يعرف عنها إلا القليل لعدم الكتابة الجادة حول هذه الفترة وذلك بجمعه لنصوص شعرية متنوعة زمانا ومكانا"(19).

إن هذا الكتاب يُمكن أن نصفه بأنه بمثابة موسوعة شعرية شاملة، رصد فيه الدكتور العربي دحو جُملة من القضايا المتصلة بثورة التحرير الجزائرية، كما جسدها الشعراء، فأدرج القصائد المتعلقة بالمكان، وبالأشخاص والمجموعات، والمؤسسات الاستعمارية، وبالأشخاص والمجموعات والمؤسسات الوطنية، وبالمعارك والأحداث، وبالعتاد والآلات العسكرية، والتاريخ بالأيام، والسجون والمعتقلات، والأشقاء، والأصدقاء، وفرحة الاستقلال، كما وضع فيه مجموعة من الأبيات، والرباعيات، والمقطوعات المتنوعة.

ثالثاً. أضواء على جهوده في دراسة الأدب المغربي (أدب المغرب العربي) القديم

1-لمحة عامة عن بلاد المغرب العربي والعصور الأدبية المغربية

أ. اسم المغرب ومدلوله

www.manaraa.com

تقع بلادُ المغرب في القسم الشمالي من القارة الإفريقية، على ساحل البحر الأبيض المتوسط من جنوبه، وقد اختلف المؤرخّون والجغرافيون في تحْديد مدلولِه، فقد كان يُراد باسمِ "المغرب" في أوّل الأمر كل ما يقابل المشرق من البلاد، ولهذا أدخل فيه بعض المؤرخين مصر والأندلس كالمقدسي "أحسن التقاسيم" وعلي بن سعيد المغربي صاحب كتاب "فلك الأرب، المحيط على لغة العرب"، "وفي أيام العباسيين زاد مدلول المغرب اتساعا فصارت الشام أيضا ضمن المغرب، إذ يروي المسعودي أنّ العباسيين قسّموا مملكتهم إلى قِسمين، وهما : المغرب، ويشمل الشام ومصر وإفريقية وما يليها غربا، والمشرق ويشمل بلاد فارس وما يليها شرقا، وأبقى آخرون على "المغرب" الحالي كابن عِذَاري في البيان المغرب، وابن أبي دينار في المؤنس، فأخرجوا منه الأندلس، وجعلوا حدود المغرب تمتد من بحر النيل شرقاً حتى ساحل المحيط الأطلسي غرباً.

بينما نجد طائفة من الكتاب ظلّت تخْلِطُ بين لفظي: "المغرب" و"إفريقية" كالبكري الذي يقول في كتابه وصف إفريقية: "وحد إفريقية طولها من برقة (بنغازي) شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً..."، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فلم يلبثْ معنى كلٍّ من اللفظين أنْ تحدَّدَ، ولقد انتهى مصطلح "المغرب" عند المؤرخين و الجغرافيين العرب إلى أنْ يشمَلَ كُلَّ ما يلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، وقد قُسِّمَ المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق، و هي : أ. المغرب الأدنى: ويسمى أيضا إفريقية، ويبتدئ من مدينة السّلوم المصرية شرقا إلى مدينة بجاية الجزائرية غربا. وكانت عاصمته القيروان أيام حكم الأغالبة، ثم المهدية أيام الفاطميين، ثم مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى اليوم. ب. المغرب الأوسط: وهو من مدينة بجاية شرقا، إلى وادي ملوية غربا، وهذا الوادي يقع بين مدينتي تلمسان الجزائرية، و(تازا) المغربية، وكانت عاصمته مدينة تيهرت في عهد الدولة الرستمية الخارجية الاباضية (160-299هـ)، وفي الأيام الأولى للدولة الزيرية الصنهاجية (361-543هـ) التي خلفت الفاطميين في حكم المغرب، صارت العاصمة مدينة أشير بالقرب مدينة المدية الجزائرية، ثم انتقلت العاصمة إلى قلعة بني حماد، ثم بجاية أيام الدولة الحمادية (405-547هـ)، وفي أيام دولة بني زيان (عبد الواد) صارت العاصمة تلمسان في القرن السابع الهجري (633-962هـ)، وأخيرا صارت جزائر بني مزغنة، وهي مدينة الجزائر الحالية، هي العاصمة حتى اليوم، وذلك منذ أن حكم العثمانيون هذه المدينة نحو سنة 1526م. ج. المغرب الأقصى: من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وترددت عاصمة المغرب الأقصى بين مدينتي فاس (البيضاء) ومرّاكش (الحمراء)، فالأدارسة أسسوا مدينة فاس سنة 191هـ، واتخذوها عاصمة لهم، ثم جاء المرابطون وأسّسوا مدينة مرّاكش سنة 463 هـ واتخذوها عاصمة، ثم اتبعهم الموحدون في اتخاذ مرّاكش عاصمة كذلك. ثم جاء بنو مرين في القرن السابع الهجري (647-814هـ) فاتخذوا مدينة فاس قاعدة لحكمهم، وتبعهم في ذلك بنو وطاس في القرن التاسع الهجري إلى أن جاء السعديون في القرن العاشر الهجري، فنقلوا عاصمتهم إلى مدينة مرّاكش، أمّا عاصمة المغرب اليوم فهي مدينة الرباط التي اختارها الفرنسيُّون أيام الاحتلال لتكون مركزاً إداريا لهم سنة 1912م .

وتقسيم المغرب العربي إلى الأقسام الثلاثة السابقة تقسيم قديم يرجع إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان آخر القرن الأول الهجري، وقد ظل إلى القرن العاشر الهجري، ثم لما استولى العثمانيون على المغربين: الأدنى والأوسط قسموهما تقسيما جديدا حسب الدول التي أنشؤوها فيهما فانقسما إلى: ليبيا وتونس والجزائر. أما المغرب الأقصى فَلأَنّهُ سَلِمَ من الحُكم العثماني، ظلّ له اسمُه العربي القديم وهو (المغرب) مع كلمة الأقصى أو بدونها، ولو أنه كان يعرف إلى عهد قريب باسم (مَرّاكُش) عاصمة الجزء الجنوبي منه.

www.manaraa.com

أما أهل التاريخ، و السياسة في وقتنا الحاضر، فالمغرب عندهم لا يعني سوى تلك الأقطار مجتمعة (ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا)، ويطلق على مجموعها اسم « بلاد المغرب العربي"(20).

عصور الأدب المغربي

قَسّم الأستاذ رابح بونار في كتابه (المغرب العربي: تاريخه وثقافته) العصور الأدبية في المغرب العربي إلى خمسة عصور حسب تصوّره واستقرائه، وهي:

1. عصر النشوء الثقافي، ويبتدئ من الفتح الإسلامي، وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (184-50هـ).
2. عصر النهضة الثقافية، ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية، وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث الهجري (296-184هـ).
3. عصر الازدهار الثقافي، ويبتدئ بقيام الدولة الفاطمية، وينتهي بسقوط دولة بني زيري (547-296هـ).
4. عصر النّضج الثقافي، ويبتدئ بقيام دولة الموحدين، وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (958-547هـ).
5. عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدئ بقيام دولة الأتراك (العثمانيين) بالجزائر وتونس، وينتهي بالانبعاث الثقافي في أوائل القرن العشرين بالجزائر(1931-1515م)

لقد كان تقسيم الأستاذ رابح بونار منطقيا واضحا في جملته، ماعدا العصر الأخير الذي سمّاهُ (عصر الانحطاط)، فإنّي أرى أنه لم يكن عصر انحطاط بل كان عصرا مزدهرا، ومن يجادل في ذلك يعود إلى كتاب تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور (أبو القاسم سعد الله). وأقترح أن يسمّى: عصر العثمانيين والسعديين... (1830-1515م).

العصر الحديث، ويبدأ منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م إلى اليوم... "وهو تاريخ حاسم يُعتبرُ درجة التّدهور العام للمغرب (العربي) خلال العصور الوسطى"(21).

والحقيقة التي يقف عليها كل من يُتابع قضايا أدب المغرب العربي القديم، و الأدب الجزائري التليد، هي أنه لم ينل حظاً وافراً من العناية، إذ ليس يخفى أن الأدب الجزائري القديم لم يحظ بالعناية الكافية من لدن مختلف الدارسين، والباحثين، ولعل أحداً لا يحتاج إلى كبير عناء لكي يدرك هذا الأمر، فالملاحظة التي يخرج بها كثير من المهتمين بقضايا الأدب الجزائري القديم، هي أنه لقي صدوداً، وإعراضاً من قبل جملة من مؤرخي الأدب، وهذا ما عبر عنه الباحث رابح بونار في مقدمة كتابه: "المغرب العربي: تاريخه وثقافته"، بقوله: "إن الباعث الحقيقي على تأليف هذا الكتاب هو إيفاء الحركة الثقافية، وتاريخها بالقطر الأول (الجزائر)، وقد أغفله مؤرخو الآداب إغفالاً، وجهل كثير من الدارسين نشاط علمائه، وأدبائه في مختلف العصور"(22).

ويؤكد الشيخ العلاّمة عثمان الكعاك هذه الملاحظة في كتاب يكتسي أهمية بالغة، وسمه بـ "بلاغة العرب في الجزائر"، حيث يذهب إلى القول: "إن العلماء قد اعتنوا بالتنقيب عن آداب اللغة العربية، وتاريخها، وتطوراتها في مختلف الأصقاع الإسلامية، إلا الجزائر، فإنهم

www.manaraa.com

أغفلوها، ولو سألت أحدهم أن يسمي لك أديباً جزائرياً لعجز عن ذلك، مع أن الجزائر قد أخرجت من الأدباء، وعشاق البلاغة، ورسل الفصاحة، والبيان ما يكون لها به الفخر، وما تسمو به مرتبتها في تاريخ الأدب العربي العام(23).

2. مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم

صدر هذا الكتاب عن منشورات ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر، وقد دفع الدكتور العربي دحو دراسة هذا الموضوع غياب كتابات علمية بأقلام مغربية، وغياب الدراسات التي تهتم بالأدب المغربي عموماً، وهو أدب خصب، وثري، وفيه إبداع رائع، كما يذكر الدكتور دحو في مقدمته، وقد خصص الدكتور العربي دحو الفصل الأول منه للحديث عن: "الأرض والإنسان بين مختلف الآراء والدراسات في النسب واللغة"، فأشار إلى الأرض المغربية، وتطرق إلى طبيعة سكان المنطقة قبل الفتح الإسلامي، فتوقف مع تاريخ الأمازيغ، أو البربر، باسمهم القديم، كما أشار كذلك إلى لغة السكان قبل الفتح الإسلامي، وأدبهم، حيث يقول عن هذا الموضوع: "تسكت الدراسات التي اطلعنا عليها عن قضية تعريب سكان شمال إفريقيا، ويبدو أن اهتمام هذه الدراسات بأصول السكان، وبالفتح الإسلامي صرف نظر هؤلاء الباحثين عن هذه القضية، وأن ظروف الفتح الطويلة التي عرفت المد، والجزر، قد ساعدت كذلك على عدم تحري هذه النقطة، فضلاً عن طبيعة السكان الذين نجدهم قد امتزجوا في ظروف عديدة، ومنها فترة الفتح الإسلامي، الأمر الذي جعل ظهور لغات متعددة في مختلف الفترات على ألسنة هؤلاء من السمات البارزة التي ميزت لغة السكان، وإذا عدنا إلى التاريخ محاولين تلمس بعض المظاهر اللغوية التي كانت تعرفها المنطقة قبل الفتح الإسلامي، وتعريب السكان، أمكن لنا أن نسوق سلسلة من الآراء التي لها صلة بالموضوع، منها التي تحدثت عن اللغة نفسها، أو منها التي وصفت هذه اللغة ذاتها محاولة تحديد خصائصها، ومنها التي تحدثت بطريقة أو بأخرى عن أدب هذه اللغة، أو السكان المتحدثين بها، وهي آراء في مجملها مقتضبة، فقيرة إلى الأدلة، والشواهد العلمية الكاشفة عن تعابيرها الفنية، التي تمكننا من خصائص أدبها، وتراكيبها المختلفة"(24).

وقد عرض الدكتور دحو منظور الباحث محمد الطمار الذي ذكر أن لغة قدماء المغرب كانت بسيطة، ثم تطورت مع الأيام، وتأثرت مع لغات الأمم التي جاورت البربر، أو استوطنت بلادهم، وهي ذات لهجات متنوعة كما يشاهد بين سكان القطر الجزائري، فهناك لهجة خاصة بزواوة تختلف في بعض مظاهرها عن لغة الشاوية، وبني مزاب، والتوارق، ويُطلق على هذه اللغة اسم تمازغت، وقد كانت لها كتابة، ومن أبرز الأدلة على وجودها ذلك الخط الذي عُثر عليه في مختلف الجهات، والذي يُشبه خط الطوارق، وقد كانت حروف اللغة البربرية تمثل رسوماً، وكان الخط البربري يتشكل من عشرة أحرف يسمونها (تيفناغ)، أي الحروف المنزلة بخلاف من عند الله، وأما الأشكال فهي خمسة، ويسمونها (تيسد باكير)، أي الدليل على العمل، والتوسع، وهي عكس (تيفناغ) من وضع البشر، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الخط البربري حديث العهد، إذ يرجع اختراعه إلى (ماسينيسا) في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وضعه على الحروف الهجائية الفينيقية(25).

كما تناول الدكتور العربي دحو منظور الباحث المعروف شكري فيصل، الذي نبه إلى وجود ثلاث لغات هي: اليونانية التي كانت اللغة الرسمية السائدة في الإدارة، وفي غيرها، وفي ولاية (بيزنطة)، ولغة سكان المدن التي هي عبارة عن خليط من اللغات اليونانية، واللاتينية،

www.manaraa.com

والفينيقية، ثم لغة السكان الأصليين، التي قال عنها: "اللغة البربرية التي تُخالطها اليونانية في السواحل، أو قريباً منها، ولم تقض عليها من تأثر بها، فقد كانت دون هذه اللغات حظاً من الاتساع، والغنى... كانت لغة فقيرة لا تكاد تعدو حياة البربر اليومية الضيقة إلى شيء وراءها من الثقافة والفكر"(26).

عالج الدكتور العربي دحو في الفصل الثاني من الكتاب، والذي جاء تحت عنوان: "السماء: العقيدة واللسان"، جملة من الأفكار ،الرؤى المتصلة بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وقدم وجهة نظره في أحداث الفتح ووقائعه، ومن بين ما جاء فيها، قوله: "من خلال شريط الأحداث السابق الذي تم عن طريقه الفتح الإسلامي للمغرب العربي الحالي، أو إفريقية، كما كانت تُسمى قديماً تجلت لنا حقائق تكاد تكون أكيدة، وبتجليها هذا نستطيع أن نرد كثيراً من الأقاويل التي روج لها بخصوص صلة المغرب بالمشرق قبل الفتح الإسلامي، ذلك لأن عدم استقبال السكان الأصليين للفتح منذ الوهلة الأولى، وعدم استقرار الفاتحين في مراحل الفتح الأولى أيضاً بالمنطقة، له ما يُبرره من جهة، ويكشف لنا عن أبعاد أُهملت، أو تُهمل عن حُسن نية، أو عن قصد مبيت، من جهة أخرى فالدعاوي التي يذهب فيها أصحابها إلى التحدث عن الوفد البربري الذي اتجه إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ينشد الإسلام، والإيمان لا يبقى ما يدعمه أمام هذا العنت الذي عشناه من خلال الغزوات التي قام بها الفاتحون، إذ تأكد لنا أن السكان لا يعرفون الإسلام، ولم يسمعوا عنه الكثير، أو القليل، فكيف يُعقل أن تكون المقاومة الشديدة للفاتحين من قبل السكان، ويكون وفد موجه إلى المدينة المنورة يبحث عن الإسلام، ويستفسر عما يتعلق به، كذلك الأمر بالنسبة للرأي الذي يذهب فيه أصحابه إلى كون (الكاهنة) وقومها لايعرفون شيئاً عن الإسلام، والمسلمين، لهذا لجأوا إلى تخريب العمران، والأشجار، والمزارع... لا نجد ما يدعمه، وعلى الأخص، ونحن نعلم أن موقف الكاهنة — هذا – تم بعد أن دام الإسلام في تونس زمناً، وبعد أن عرفه (كسيلة) أي الإسلام، وكسيلة على صلة بالكاهنة، وبعد أن عبر عقبة في غزوته الثانية الجزائر من شرقها إلى غربها، مما يجعلنا نعتقد أن الكاهنة، وقومها في محاربتهم للإسلام، والمسلمين، إنما قصدوا إلى ذلك قصداً، وربما ما يُثار بشأن كسيلة الزعيم البربري، وعقبة القائد الفاتح له دور في هذا النفور الذي يتأكد أكثر بعد هذه الحادثة عند السكان من المسلمين مع كسيلة الذي ثأر، وانتقم لنفسه، ومع الكاهنة التي كانت تتوقع المصير نفسه إذا ما تم الفتح، ووقعت في يد العرب، وكل ذلك يؤدي بنا إلى استنتاجات أخرى نراها مهمة جداً منها أن العلاقة بين المشرق، وبين المغرب كانت معدومة، ومنها أن الدعاية الرومانية استطاعت أن تكسب البرابرة..."(27).

وأشار إلى قضية تعريب السكان، كما توقف مع بعض الرؤى التي قُدمت عن نشأة الأدب العربي المغربي. وفي الفصل الأخير من الكتاب، والذي وسمه بـ "أشعة الشمس تُفجر الإبداع على ألسنة أهل المغرب"، تناول الدكتور العربي دحو بعض قضايا الأدب المغربي في ظل الولاة (184-85)، فتوقف في القسم الأول مع الشعر، حيث خرج بملاحظة مفادها أن موضوعات الشعر المغربي في عهد الولاة، كما تجلى من خلال المقطوعات، والقصائد التي انتقاها بدا أنه "تتجاذبه عدة مميزات، توجز في اتصاله الوثيق بموضوع الشعر العربي المشرقي الذي يتناول الحياة اليومية للإنسان العربي عاملاً، أو مجاهداً، أو متوتراً متألماً لحدث من الأحداث، أو مهدداً متواعداً لسبب، أو لآخر، وهو دون ذلك الشعر في جمالياته اللغوية، والأسلوبية، وفي نفسه المحدود، الذي لا يتجاوز إنجاز فكرة يمكن أن تشكل ملحمة بكاملها... وتصقله العفوية والتلقائية، فيأتي بسيطاً بساطة الجو الذي أنتجه، واللحظة التي أعطته، وهذا يعني بالضرورة أننا عند تناولنا

www.manaraa.com

هذا الشعر لا ينبغي علينا أن نُحمله أكثر مما يُطيق، بل علينا أن نضعه في كفة، وقائليه في كفة أخرى..."(28). وفي القسم الثاني أشار إلى بعض الخصائص الفنية المتعلقة بالنثر في تلك الفترة.

3. الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (230-30هـ) – جمع وتوثيق وتعليق ودراسة-

طُبع هذا الكتاب في ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، سنة: 1994م، وقد خصص الدكتور العربي دحو القسم الأول منه للدراسة، حيث يتكون الشق الأول للكتاب من تمهيد، وفصلين، فالتمهيد تطرق من خلاله إلى رؤى متنوعة تتصل بما قيل عن تعريب السكان، ونشأة الأدب العربي في المغرب العربي، وهو يرى أن الموضوعين أغمط حقهما من الدراسة، والبحث، والتحليل، والنقاش، في حين جعل الفصل الأول من هذا الكتاب لمعالجة مضامين شعر الديوان، الذي جُمع عن الفترة المحددة، والتي قام بجمعها، وهي تزيد عن ألف بيت من الأشعار المتعددة الأغراض، وبالنسبة إلى الأسباب التي أدت إلى تعدد الرؤى فيما يتصل بأولية الأدب المغربي القديم، وأول من أبدع فيه، فالدكتور العربي دحو، يوجزها في:

1. ضياع المصادر المغربية المبكرة، ولاسيما منها التاريخية، كما اندثر كذلك الكتب الأدبية، وهي خير مظان الشعر الذي قيل خلال تلك المرحة التي تكتسي أهمية كبيرة.
2. بعد الشقة بين المغرب، والمراكز الأدبية القوية في العراق، والشام، وفي المراكز التي احتفت بالأدب درساً، ونقداً، وتدويناً.
3. أولوية شعر البلاط لدى كثير من المهتمين بدراسة الأدب في تلك الفترة.
4. الضعف النسبي لكثير من شعر الفتوح، نظراً لملابساته، التي تبعث على العجلة، وعدم التنقيح، فإذا كان المشرق قد احتفظ بقدر من شعر فتوحه، فهذا الأمر يعود إلى وفرة المصادر المشرقية التي وصلتنا.
5. طبيعة السكان التي لم تكن تسمح لهم بتلقف النصوص الشعرية باللسان العربي، خلال السنوات الأولى من الفتح الإسلامي، فقد كان من الصعب تناوله، وتداوله، وحفظه، والاهتمام به، كونهم لا يتقنون اللغة العربية، ولا يستطيعون تدوينه، أو روايته.
6. إن الفاتحين أنفسهم لم يكن لهم استقرار في المنطقة طوال القرن الأول الهجري، حيث تأكد تاريخياً أن حملاتهم كانت تتميز بالمدر، والجزر، وأن مكوثهم في المنطقة في البداية كان محدوداً جداً، ففتح المنطقة نفسها لم يتم إلا في سنة: 84هـ، أعقبها التوجه إلى المغرب الأقصى، لتدعيم، وإرساء أسس الدولة الإسلامية، ثم تلاها التوجه إلى البلاد الأندلسية سنة: 91هـ..
7. ما يُلاحظ إلى اليوم على جل سكان المغرب العربي من عدم الاهتمام، والاحتفاء بالثقافة الأدبية، ولاسيما منها الشعرية، وذلك خلافاً للمشارقة، ولعل ما يروى من هجرة شعراء المغرب العربي إلى المشرق، لهو خير دليل على هذا الأمر(29).

قدم الدكتور العربي دحو في الفصل الأول من الكتاب مقاربة وصفية لمحتويات الديوان، وموضوعاته، وأشار إلى أهم الأغراض الشعرية منها: الفخر، والحكم والشكوى، والزهد، والمدح. إذ نلفيه يصف هذا الديوان بقوله: "تضمن الديوان أربعاً وعشرين ومائة نص بالضبط، موزع على القصائد، وبلغ عددها أربعاً وأربعين قصيدة، المقطوعات وبلغ عددها ثمان وأربعين مقطوعة، الأبيات وعددها اثنين وثلاثين بيتاً، بحسب المقاييس النقدية العربية القديمة، التي ما تزال معتمدة لدينا، والتي ما تزال صالحة، بحيث اعتبرنا خمس أبيات فما فوق

www.manaraa.com

قصيدة، وثلاث أبيات إلى خمس مقطوعة، وما دون ذلك فهو إما بيت، أو بيتان، مع العلم أن هذه المقاييس تعد عندنا ممثلة للوسط، لأن بعض النقاد يشترطون أكثر من سبع أبيات في القصيدة، وأكثر من ثلاث أبيات في المقطوعة، وما دون ذلك فهو بيت أو بيتان، أما عدد الأبيات التي تكون، أو يشتمل عليها الديوان كله: قصيدة، ومقطوعة، فيقترب من ألف بيت، هذا العدد هو الذي نتناول محتواه في الصفحات القادمة تناولاً نسبياً، لأن فصل موضوعاته كلاً على حدة غير ممكن نتيجة التداخل القائم في الموضوعات، في النص الواحد، وهكذا نجد مثلاً في نص المدح: الفخر، والتهديد، والوعيد...، وفي نص الرثاء المدح، والبكاء، والتألم، إلى غير ذلك من ما هو مألوف في قصيدة الشعر العربي في هذه الفترة، والفترات السابقة لها كذلك، وبعودتنا إلى النصوص وجدنا المواضيع التي تأخذ حظ الأسد، وتقترب من البعض، هي: الفخر، والمساجلات، أو المناظرات السياسية، والحكمة، والشكوى، ثم بقية الموضوعات الأخرى الممثلة في الزهد، والغزل، والشوق، والشباب، والشيب، والمدح، والاستعطاف، والهجاء..."(30).

وفي الفصل الثاني أشار إلى الخصائص الفنية، فتوقف مع اللغة، والتصوير، والتشكيل الموسيقي.

خاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث تقديم قراءات مقتضبة في بعض جهود الباحث الأكاديمي الجزائري العربي دحو، بيد أن جهوده هي أكبر من أن تحيط بها قراءات سريعة، فهو واحد من الأساتذة المتميزين علمياً، ظل طوال حياته ينتج، ويبدع في مختلف ميادين المعرفة، وما يزال كذلك يتجاوب مع مختلف الأنشطة الثقافية التي تقام، و له صلة وثيقة بقضايا الثقافة الشعبية، والأدب الجزائري، والأدب في المغرب العربي، وليس من شك في أن جهود الباحث الأكاديمي العربي دحو تستحق الإشادة، والتنويه، اعترافاً بمكانته، وتقديراً لخدماته الجليلة في حقول الأدب، والتراث، والتربية، وإنه لمن الصعب أن نلم بنشاطاته الكثيرة إلمامة وافية، وسيتذكر كل من عرفه، وقرأ له، إنجازاته الأدبية القيمة، وسيذكرون ذلك الأديب المبدع، والأستاذ الجامعي الأكاديمي المنفتح الذهن على الثقافات، والأفكار، والذي تميز بإخلاصه لمهنته، ولطلابه، فقدم عصارة فكره، وجهده، وعلمه، بكل أمانة، وصدق، وأسهم بفعالية كبيرة في إثراء المسيرة العلمية، والأدبية.

الهوامش

01. د. عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2007م، ص:395.

02. د. عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، ص:396.

03. رابح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م، ص:166.

04. الثقافة من « الثَّقْفِ »، الذي له عشرة معانٍ في لغة العرب، حسبما هو مدّون في القواميس، والمعاجم الموثوق بها عند علماء اللغة، ومن أهمها: تسوية الشيء، وتقويم اعوجاجه، تقول: ثقفتَ الرُّمح، أو القوس، أو أي شيء معوج، إذا قوّمتَه، وسويته من اعوجاجه، فيغدو مثقّفًا مُقوّمًا، وعلى هذا الأساس استعيرت لفظة: "مثقف" إلى كُلّ ما هو مستقيمٌ صَلْبٌ، وكذلك فهي الحِذْقُ والمهارة في إتقان الشيء، قال ابن منظور: "ثقف الشيء ثقفًا، وثقافًا، وثقوفه، حذقه، ورجلٌ ثَقْفٌ، وثِقِفٌ، وثَقَفٌ، وثَقِفَ الرّجلُ ثقافة، أي : صار حاذقا فطنا، فهو ثَقِفٌ، وثُقُفٌ، مثل : حَذِرَ، وحَذُر..."، وقد ورد هذا المعنى نفسه في بعض عبارات المتقدّمين، مثل: عبارة أبي حيان التوحيدي في "المقابسات"، وعبارة ابن خلدون في "المقدمة". والثقافة في أدنى مستوياتها هي مجموع الاستجابات، والمواقف التي يواجه بها شعب من الشعوب – بحسب عبقريته – ضرورات وجوده

www.manaraa.com

الطبيعي من مأكل، وملبس، وتناسل، أمَّا على المستوى الأرفع فإنَّ للثقافة أوجهًا ثلاثة هي: تنمية الفكر، وترقية الحس النقدي، وتكوين الحس الجمالي، وإرهاف الذوق، والاستمساك بالقيم، وغرس الحس الأخلاقي. وقد اعتمدتُ في صياغة هذه التعريفات من عدة مراجع: د. محمد بن عبد الكريم الجزائري: الثقافة ومآسي رجالها، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت)، ص: 9 وما بعدها. وابن منظور: لسان العرب، مادة : ثقف. والتوحيدي: المقابسات، مطبعة الرحمانية، القاهرة، 1929 م، ص:375. وابن خلدون: المقدمة، منشورات مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967 م، ص: 448. ويذكر الباحث سيد غدريس هاني أن الحضارات هي هويات ثقافية في التقليد الأنثروبولوجي الأمريكي، وهم نادراً ما يُفرقون بين الثقافة والحضارة، وقد اعتادوا في الترجمات ذات الأصول الأمريكية أن يترجموا الثقافة بالحضارة، والحضارة واحدة والثقافات متعددة، ففي "عصر ثورة الاتصالات هناك حضارة واحدة،في الماضي سمعنا عن وجود حضارات، وهذا إنما يرجع إلى أزمة التواصل ومشكلة العزلة، إن الحضارة ليست هي مطلق الحضور، كما ينحو الجميع، فمالك بن نبي مثلاً وهو الرأي التقليدي السائد، بالنسبة إليه الحضارة هي أخص من الحضور، إنها حضور أمثل وأقوى، والحضارة هي القوة، والثقافة هي أمر ملازم لكل أشكال الحضور، الثقافة هي إفراز وجودي لكل الكيانات الاجتماعية، لكن الثقافة ليست بالضرورة حضارية، فالثقافة تمثل من الحضارة مرحلة القوة، والحضارة تمثل من الثقافة مرحلة الفعل، والحضارة أخص من الثقافة، فالقوة واجبة في حق الحضارة، ممكنة في حق الثقافة، ما يعني أن كل ثقافة تملك إمكانية التحضر، ولا يجب لها التحضر حتى تصبح قادرة على إنتاج القوة"

الحضارة: – عند اللغويين – "خلاف البداوة"، وهي عند ابن خلدون: "تفنُّن في التّرف وإحكام الصنائع". أمَّا في نظر الدكتور محمد بن عبد الكريم، فهي: "ظاهرة اجتماعية، تتبلور في نظم محكمة، وآثار ماثلة". فقولنا: "ظاهرة اجتماعية"، احترازا من الظاهرة الفردية التي مبعثها الثقافة. ونعني بـ "النظم المحكمة" كل ما يقتضيه النظام والإحكام في تسيير شؤون الإنسان المتحضر، مثل: النظم السياسية، والاقتصادية، والإدارية والقضائية، والحربية، والثقافية، والزراعية، والتجارية، والأسرية، وهلمَّ جرًّا... ونعني بـ "الآثار الماثلة" فن العمارة بجميع أنواعها، مثل: تخطيط المدن، وتمصير الأمصار، وتشييد البنيان، ثم النحت، والرسم، والتصوير، والزخرفة، وجميع الفنون الجميلة..، وهناك فرق بين "الثقافة" وبين "الحضارة" من عدة وجوه. أولاً: إذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية، فإنَّ الحضارة تنزع إلى العمومية، فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم، لا يشاركها في شأنها أحدٌ، تحمل صيغة هذه الأمة، وتتّسم بسماتها، ووراء كل حضارة دينٌ، وقد تصبُّ عدة ثقافات في نهر حضارة واحدة. فالثقافة العربية التي ننتمي إليها هي في أدنى مستوياتها مجموع تقاليدنا وعاداتنا، أمَّا على مستواها الأعلى فهي النهج الذي نهجه الغزالي في الجانب الروحي، وابن رشد في الجانب الفكري، وابن حزم في الجانب الأخلاقي، وابن خلدون في الجانب الاجتماعي، ونشكل – نحن العرب – بثقافتنا مع ثقافات أخرى – الفارسية والتركية – نشكل الحضارة الإسلامية التي ساهمنا جميعا في إنشائها وإثرائها.

ثانياً: أنَّ الثقافة تصور وإرادة، وأنَّ الحضارة أثر ونتيجة لهما.

ثالثاً: أنَّ الثقافة وصف عام للفرد والأمة، وأنَّ الحضارة وصف خاص بالأمة، أي: مثلها مثل "العلم". يقال: "حضارة الأمة الفلانية"، ولا يقال: "حضارة الشخص الفلاني"، بخلاف "الثقافة"، فتصدق على الشخص والأمة.

رابعاً: أنَّ الحضارة تتجسم في النظم السياسية، وفي العلوم، والصنائع، والاختراعات على وجه العموم، وأنَّ الثقافة تتمثل في اللغات، والآداب، والتواريخ، والفلسفات، وجميع العلوم الإنسانية، أي: إنَّ الثقافة تقدّمٌ من الوجهة الخُلُقية والفكرية، والحضارة تقدّمٌ من الوجهة الاجتماعية على وجه العموم.

خامساً: كل أمّة مثقفة يصدق عليها أن تكون متحضرة، وليس العكس، لأن هناك الكثير من الآثار الحضارية القديمة التي مازالت قائمة ومرئية حتى الآن، بَيْدَ أنّ إيجادها لم يكن بدافع ثقافي: مثل أهرام مصر، ومختلف الأسلحة المحفوظة في المتاحف الدولية، فتلك شُيّدت بدافع وهمي – على أحد الأقوال في سبب بنائها – وهذه صُنعت من أجل الدفاع عن النفس تارة، وسفك الدماء بها تارة أخرى. وما قيل في ذلك يقال في القنابل الذرية والأسلحة الفتاكة، المصنوعة في العصر الحاضر، فإنَّ صنعها لم يكن بدافع ثقافي، وإنَّما كان بدافع الترهيب، وحُبّ التسلط على البشرية، وسفك دمائهم، وهذا منافٍ للثقافة، التي تهدِفُ إلى تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، وحب الخير، وإصلاح المجتمعات. وعلى هذا الاعتبار فالثقافة أعلى من الحضارة، وأرقى منها في سلم الحياة. وهي، على وجه العموم، روحية في الجوهر... أمَّا الحضارة فمادية في جوهرها ومحسوسة،

www.manaraa.com

والثقافة سابقة على الحضارة في الوجود... وليس في الإمكان ضبط الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة بوجه دقيق. ويرى بعض الدارسين أن مفهوم الحضارة لم يلق إجماعاً على دلالته بين مختلف الحضارات الإنسانية التي عرفها التاريخ، على الرغم من اشتراك هذه الحضارات في الكثير من القيم الإنسانية التي تشكل جوهرها، فمن يرغب في المضي في مسار حوار الحضارات عليه أن يتفق على حدود دنيا لمفهوم (الحضارات الإنسانية)، ولتصنيفاتها التي تتفاوت نظراً لاختلاف المعايير، وهناك "أمر آخر، وهو أننا ننسب الحضارات الإنسانية في محاولتنا تصنيفها إلى القارة حيناً (فنقول الحضارة الغربية)، وإلى اللغة أو الأمة حيناً ثالثاً (فنقول الحضارة العربية، أو الحضارة الصينية، أو الحضارة اليابانية)، وإلى العقيدة حيناً رابعاً (فنقول الحضارة الإسلامية)، وإلى الإقليم أو النهر أو الوادي خامساً (فنقول حضارة بلاد الرافدين) وإلى العصر سادساً (فنقول الحضارات القديمة، أو الحضارة الحديثة)، وإلى غير ذلك مما يقع المرء عليه في قراءاته لتاريخ الحضارات الإنسانية، ولكننا نادراً ما نسأل أنفسنا هل ثمة حضارة صرف نقية لا تشوبها شائبة من حضارة أو حضارات أخرى؟ ونمضي أحياناً في نزعة التمركز حول الذات فنتحدث عن (عبقرية الحضارة) التي نتماهى معها، وننتسب إليها، أو نرغب في الانتساب إليها". وقد اعتمدنا في صياغة هذه الفوارق من عدة مراجع متنوعة منها: أحمد مسجد جامعي: كلمة افتتاحية لكتاب محاضرات في حوار الحضارات، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، 1421هـ/ 2001م، ص:9. ود. محمد بن عبد الكريم: الثقافة ومآسي رجالها، ص: 38. ود. سعد بوفلاقة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة دراسات، مجلة دورية محكمة تصدر عن جامعة الأغواط، الجزائر، العدد: 02، جوان 2005م، ص:114-115. ود. عبد النبي اصطيف: حوار الحضارات في عصر العولمة، بحث منشور في كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ج: 01، ص: 323 وما بعدها.

05. مصطفى يعلى: نحو تأصيل الدراسة الأدبية الشعبية في المغرب، نموذج (من وحي التراث)، دراسة منشورة ضمن كتاب: الأدب المغربي: إشكالات وتجليات (دراسات مهداة للأستاذ عباس الجراري)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1427هـ/ 2006م، ص:157.

06. رابح العوبي: أنواع النثر الشعبي، منشورات مديرية النشر في جامعة باجي مختار بعنابة، الجزائر، د، ت، ص: 7 وما بعدها.

07. د. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، ج:01، ط:01، 1993م، بيروت، لبنان، ص:56.

08. د. عبد الملك مرتاض: مائة قضية وقضية – مقالات ودراسات تُعالج قضايا فكرية ونقدية متنوعة–، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2012م، ص:320.

09. د. محمد التونجي:المعجم المفصل في الأدب،ج:01،ص:57.

10. د. محمد التونجي: المرجع نفسه، ص:58.

11. د. العربي دحو: الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1955-1962م)، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت)، ص:5-6.

12. د. العربي دحو: الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1955-1962م)، ص:15.

13. د. العربي دحو: المرجع نفسه، ص:26.

14. د. العربي دحو: المرجع نفسه، ص:35.

15. المرجع نفسه، ص:103.

16. المرجع نفسه، ص:143 و144.

17. د. العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية–دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية–، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت)، ص:7-8.

18. د. العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية–دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية–، ص:14.

المنارة
www.manaraa.com

19. د. العربي دحو: ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1433هـ/ 2012م، ص:7-8.

20. استقينا هذه المعلومات من كتاب د. سعد بوفلاقة: دراسات في أدب المغرب العربي، منشورات بونة للبحوث والدراسات1428هـ/ 2007م، ص:15 وما بعدها.

21. رابح بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته ،منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص:8-9.

22. رابح بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته ،منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص:05.

23. عثمان الكعاك: بلاغة العرب في الجزائر، نقلاً عن: رابح بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته، ص:07.

24. د. عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم-دراسة في الجذور-، منشورات دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، د،ت، ص:10.

25. د. عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم-دراسة في الجذور-، ص:18.

26. د.العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص:29.

27. د. العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، ص:30.

28. د. شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 04، 1978م، ص:180، نقلاً عن: د. العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، ص:31. و د.العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، ص:48-49.

29. د. العربي دحو: الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (230-30هـ)- جمع وتوثيق وتعليق ودراسة-، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ص:38 وما بعدها.

30. د. العربي دحو: الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (230-30هـ)- جمع وتوثيق وتعليق ودراسة-، ص:43 وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن حجة الحموي: بلوغ الأمل في فن الزجل، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1974م.

2. الحلي (صفي الدين): العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق: حسين نصار، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1981م.

3. ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن، (ت: 808هـ، 1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، في سبعة مجلدات، الطبعة الثانية، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت، 1956-1961م.

4. ابن خلكان، أبو العباس، أحمد بن محمد، شمس الدين،(ت:681هـ، 1281م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر بعناية: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة،1367هـ- 1948م.

5. ابن سعيد المغربي (علي بن موسى): المغرب في حلى المغرب، ج:1، ج:2، تحقيق: شوقي ضيف، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:3، 1978م.

6. ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق: جودت الركابي، منشورات دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:3، 1400هـ- 1980م.

7. غازي (سيد): ديوان الموشحات الأندلسية، ج:1، وج:2، الإسكندرية، مصر، 1979م.

8. ابن قزمان: الديوان، تحقيق: ف. مورينطي، مدريد، إسبانيا، 1980م، والقاهرة، مصر، 1995م.

9. أنيس (إبراهيم): موسيقى الشعر، منشورات دار القلم، بيروت، لبنان، 1972م.

10. الأهواني (عبد العزيز): الزجل في الأندلس، منشورات معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، مصر، 1957م.

11. الأوسي (حكمت علي): الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، د،ت.

www.manaraa.com

12. الأوسي (حكمت علي): فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، ط:2، 1974م.

13. بوفلاقة (سعد): الشعريات العربية المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 1428 هـ- 2007م.

14. بونار (رابح): المغرب العربي: تاريخه وثقافته، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

15. الجراري (عباس): الزجل في المغرب القصيدة، منشورات مكتبة الطالب، الرباط، المغرب الأقصى، (د،ت).

16. خدوسي (رابح): موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م.

17. الداية (محمد رضوان): مختارات من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية، وفي الموشحات والأزجال، منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان (د،ت).

18. دحو (العربي): بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية – دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية –،منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت).

19. دحو (العربي): ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1433هـ/ 2012م.

20. دحو (العربي): الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1962-1955م)، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت).

21. دحو (العربي): الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (230-30هـ) – جمع وتوثيق وتعليق ودراسة –،منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.

22. دحو (العربي): مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).

23. ريبيرا (خوليان): التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر (د.ت).

24. ريدان (سليم): ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي – من القرن الرابع إلى السادس هجرياً –،منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، ج:01، تونس، 2001م.

25. الطرابلسي (حسناء بوزويتة): حياة الشعر في نهاية الأندلس، منشورات دار محمد علي الحامي، صفاقس، ومركز النشر الجامعي، تونس، ط: 1- 2001م.

26. عباس (إحسان): تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، منشورات دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط:4،1974م.

27. عتيق (عبد العزيز): الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1976م.

28. عطا (أحمد محمد): دراسات في فني الموشحات والأزجال، منشورات مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط:1، 1419هـ-1999م.

29. عيد (يوسف): دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، 2006م.

30. عيسى (فوزي سعد): الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين، منشورات دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1990م.

31. غومس (غرسية) (G.GOMEZ): الشعر الأندلسي: بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مصر، 1956م.

32. غومس (غرسية) (G.GOMEZ): مع شعراء الأندلس والمتنبي – سير ودراسات –،ترجمة: الطاهر أحمد مكي، منشورات دار المعارف بمصر، ط:4،1406هـ-1985م.

33. فروخ (عمر): تاريخ الأدب العربي، ج:04، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:03، نيسان/ أبريل1992م.

34. مرتاض (عبد الملك): مائة قضية وقضية – مقالات ودراسات تُعالج قضايا فكرية ونقدية متنوعة –منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

www.manaraa.com

35. مرتاض (عبد الملك): معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
36. نصار (حسين): الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، بيروت، لبنان، د،ت.

www.manaraa.com